البحث الخامس

مع الصابئة المندائيين في إيران

نُشرت هذه المقالة في مجلة الدراسات الدينية أيلول ١٩٩٦، السنة الثانية، العدد ٣ ص١، كتبتها آن يورن جاكسون باكلي، وهي باحثة مستقلة تعيش في مدينة ايستهام بأمريكا، وقدمها دكتور فرحان عبد الواحد يوسف [١]؛ حيث ذكرت أن المندائيين وتعني حرفيًا العارفين ، هم الروحانيون (الغنوصيون) الوحيدون الباقون من زمن العصور القديمة.

ولقد قطنوا خلال الألف وثمانمائة سنة الماضية في جنوب العراق، وجنوب غرب إيران وأجزاء أخرى من العالم، وهم يلتزمون بالعقائد الغنوصية الأصيلة، والأساطير التي تعالج وقوع الروح في شرك الحياة الدنيوية، وبوجود عالم نور سماوي، وهو موطن الروح الحقيقي.

ولكونهم تعميديين ؛ يرى المندائيون في يوحنا المعمدان أخر أنبيائهم ومجدد الديانة التي يقولون عنها إنها تنطلق في نهاية الأمر من آدم نفسه ، يعيش المندائيون مع إخوانهم المسلمين، ويكونون جزء من شعوب جيرانهم، وعبر القرون حافظوا على تقاليدهم إلى درجة ملحوظة، وقد يصل عددهم الكلي إلى ٥٠ ألف نسمة، ولكن الوصول إلى عدد حقيقي أمر يكاد يكون مستحيل.

قام قسم التاريخ بجامعة الدكتور بهشتي في طهران بتقديم طلب إشارة الدخول لي (الفيزا)، وهو ترتيب حكيم لأن المندائيين غير معترف بهم رسميًا كأقلية دينية في إيران ، وبعد الثورة سنة ١٩٨٠ ؛ توقفت الحكومة عن تقديم هذه الحماية لهم، وعندها عمل المندائيون على استعادة هذه الحماية.

١ـ دكتور فرحان عبد الواحد يوسف ، شقيق المؤلف ولع العديد من المقالات القيمة.

وقبل حوالي سنة أصدر الرئيس الإيراني خامنئي فتوى بشأن المندائيين، تنص على أن المندائيين موحدون ولهم كتاب مقدس ونبي، لذلك يجب الاعتراف بهم كديانة محمية، ومنذ صدور الفتوى تعززت آمال المندائيين، ونتيجة لذلك كان التأييد الديني السياسي من بين الخطط التي وضعت تسهيلاً لمهمتي، وبغض النظر عن كوني ضيفة على المندائيين، فقد عقدت مؤتمرات ومحادثات دينية مع رجال الدين المندائيين، وشاهدت الطقوس، وزرت الأقاليم المقدسة، فقد ظهرت في طهران أمام جمهور مسلم من الطلبة والأكاديميين ورجال الدين والمثقفين.

ينقسم المجتمع المندائي إلى طبقات: رجال الدين واليلوفا، وعامة الناس، ومثلما يمكن للمرء أن يتوقع؛ تعتبر قواعد النقاء هي الأقوى بالنسبة لرجال الدين، وكان مرافقي الدائم هو الشيخ سالم الكحيلي، وهو بدرجة (يلوفا)، أي رجل متعلم من عامة الناس، والذي عمل مع آخرين كمترجم فوري لي، وسافر معي إلى كل مكان، وأصبح صديقي الموثوق به وأخي الكريم.

في البداية ذهبت إلى الأحواز عاصمة المحافظة الجنوبية القريبة من (خوزستان) وهي مركز الطائفة المندائية في إيران، وهناك وجدت أربعة رجال دين، ثلاثة منهم الشيخ جبار وولديه، وينتمون إلى عائلة طاووسي، أما رجل الدين الآخر فكان من عائلة أخرى، وكان بدرجة (ترميذا) تلميذ، وهي أدنى درجة دينية، في حين كان الشيخ جبار وولده الأكبر بدرجة (كنزبرا)، أي أمناء، وهي أعلى درجة، باعتبارهم مصدر طاقات روحية لا شك فيها، ورجال الدين أرستقراطيون ويتسمون بلحاهم الطويلة.

وفي يوم أحد شاهدت أول تعميد مندائي؛ حيث جرى عند ضفة الكارون وهو أكبر الأنهار في إيران، كان ماء النهر بني اللون وسريع الجريان؛ ممتلئاً بالثلوج الذائبة من الجبال، ويمارس المندائيون تعميد متكرر، ولابد من حصول تغطيس كامل في ماء جار نظيف، الذي هو صورة لعالم النور على الأرض،

وقد ترك رجال الدين الثلاثة وهم يرتدون ملابسهم الطقسية التي تدعى (رستا)، والأشخاص الخمسة الذين كان يراد تعميدهم، تركوا انطباعًا رصينًا ومؤثرًا ونموذجيًا.

إذ بدأ المشهد غير محدود بزمن وكاني كنت أتابع شيء قد حصل قبل ألفي سنة؛ ومع ذلك كنا في مدينة تعج بثلاثة ملايين نسمة، وقليل منهم من توقف على الجسر لينظر في اتجاهنا، وفي أحد الأيام انطلقنا بالسيارة عبر الصحراء لنرى (مندي) تقليديًا يقع مخفيًا خلف بوابة مغلقة وأسوار عالية، ويستخدم الكوخ لعمليات تكريس رجال الدين، ولغرض إجراء طقوس عيد البروناية (البنجا) عيد الخليقة، وهي فترة الأيام الخمسة التي تمَّت فيها عمليات الخلق.

ومن خلال إذن خاص من الشيخ جبار منحت شرف الدخول مرتدية صندل خشبي إلى الكوخ الذي كان بلا نوافذ، وكانت هناك معاملات خاصة أخرى، فقد تجمع المندائيون بأعداد كبيرة لسماع محاضرتي في منديهم الواقع في الحي المندائي في الأحواز، وقد جلس رجال محترمون ذوو لحى طويلة في الصف الأول.

وفيما بعد؛ وفي وقت مبكر من المساء، امتلأت القاعة بالنساء والأطفال وأنا أتحدث عن طريق المترجمين عن دراستي لديانتهم وأصل الديانة وعلاقاتها بالديانات الأخرى في الماضي والحاضر، واستمرت الجلستان ساعات حافلة بالزهور والهدايا، وقد عاملوني وكأني رئيسة دولة أو نجمة رقص معروفة، فقد التمعت كاميرات الفيديو وراحت تصور دون توقف، إذ لم يزرهم باحث من الخارج في الأحواز منذ الثلاثينيات.

واندهش معظمهم أن أجنبي من الخارج يعرف عن ديانتهم ويتحدث عنها، وكانت هناك رحلات لمصانع وورش مندائية، وإلى مواقع أثرية قديمة في الصحراء، وإلى مراقد إسلامية وإلى مدن عديدة وكذلك شيراز وبيرسيبولس برفقة المندائيين... وفي أمسيتي الأخيرة في الأحواز، وفي جلسة التوديع في

المكتب العلوي من المندي؛ تم تبادل كلمات رقيقة وشعرت بالحزن وأنا أغادر عائلتي التي كسبتها حديثًا.

كنت ذاهبة إلى طهران وماذا كان يمكنني القول عن المندائيين لجمهور مسلم، إنه لأمر مهم وصعب، وفي جامعة الدكتور بهشتي في طهران ألقيت محاضرة عن المندائية وتاريخها وعن المانوية، وهي شكل منقرض من أشكال الروحانية المسيحية، قريبة تاريخيًا وفكريًا من المندائية، وحضر جمهور يقدر بحوالي ٣٠٠ شخص (الطالبات على يساري والطلاب على يميني فيما جلس الأساتذة ومنظمو المحاضرة والمرافقون المندائيون في الصف الأمامي).

جلست على منصة قريبة من علم إيراني، لم أكن مستعدة لسماع العبارات التي صدرت مرتين من الصفوف التي يجلس عليها الطلاب الذكور، واعتقدت خطأ أن ذلك نوع من الاحتفاء الرقيق، ولكن تبين أن الرجال كانوا يصلون لبضعة ثوان كلما ذكرت بعض الأسماء، وبعد المحاضرة التحق بي وبالمترجم كل من الشيخ جحيلي وأربعة أساتذة من بينهم الدكتور مجتبعي وهو شيخ تاريخ الأديان في إيران.

وتدفقت علينا الأسئلة المكتوبة من الجمهور وأخذنا نجيب بالدور، كيف تسنى لي دراسة المندائية ومن هم أساتذتي، والموقف التاريخي الديني في إيران في القرن الأول، وعلاقة المندائية بأشكال الروحانية (الغنوصية) الأخرى، ولماذا يرفض المندائيون الختان؟ (عالج الشيخ جحيلي ذلك الأمر)، وهل المندائيون موحدون؟ وما مدى أهمية علم النجوم لديهم؟ (السؤالان الأخيران في غاية الحساسية هذه الأيام في إيران).

لقد كان هذا حدثًا إيجابيًا ومهمًا جدًا، وأن مؤتمر كهذا عن المندائية ما كان له أن ينعقد في جامعة إيرانية، وعلى أية حال لقد مضى زمن طويل منذ أن جاء شخص من الخارج ليقدم المندائية إلى جمهور مسلم، وقد تبادلنا كلمات التقدير وغادرت المنصة بتصفيق حار، حاملة معي سجادة جميلة، تحمل صورة المتصوف الرومي.

وفي إحدى الأمسيات تشاورت مع أعضاء في معهد ابن سينا ، وهو جمعية توحيدية خاصة بالعصر الإسلامي الجديد ، ذات اتجاهات صوفية ، وهي رابطة مكرسة لدراسات متكاملة عن الروحانية والفلسفة والمعالجات ، وتمنى الأعضاء تأسيس اتصالات مع مجاميع ذات صلة في الولايات المتحدة ، وهنا التقيت لفترة قصيرة مع آية الله سجادي ، وهو أستاذ قانوني محترم ، يتمتع بأخلاق مرنة ومرشح للبرلمان ، وينحدر من مدينة قم المقدسة ، طرح علي ثلاث أسئلة براغماتية عن المندائيين : هل يصلون ؟ هل يصومون ؟ هل يسمحون بالزواج المؤقت ؟ وبدا مرتاحًا للإجابات.

وقد انتهى معظم وقتي مع منتسبي معهد ابن سينا ، وقد أبلغهم مترجمي عن نيتي عقد مؤتمر حول طرق البحث الحالية في تاريخ الأديان ، وقد أردت عقد مثل هذا المؤتمر (ولكن هل يمكن أن يسمحوا به ؟) ، وعلمت أن الموضوع سيكون مثيرًا للجدل ، ولحسن الحظ منع البروفسور مجتبعي عقد المؤتمر في مكان يفتقد للحماية ، وبدلاً من ذلك عقد في مكان آمن ، في قاعة مؤتمرات كبيرة في فندق (لاهيل) ، الذي مازالت على جدرانه كتابات معادية للولايات المتحدة.

وجلس عدد من رجالات الدين البارزين ببزاتهم إلى جانب مثقفين من مختلف الاتجاهات ، وبعد خلق جو مهذب بدأت الدخول في مسار معرفي حذر بين ما بعد الحداثة والتوحيد ، منتقدة كلا الموقفين باسم الموضوعية الأخلاقية... وشاركني ثلاثة من المحترفين على المنضدة في الجولة الثانية من المؤتمر ، واعترف أني تأثرت كثيرًا بحجة الإسلام عبد خودي ، وهو دبلوماسي حقيقي تمكن من إظهار مرونة في القضايا الدينية رغم كونه من المتشددين.

كان هذا الحدث مثيرًا إلى حد أنني لم أجربه من قبل ، بعد ذلك سألتني شابة بعد أن أحست بالنشوة لأنني ذكرت علاقات القوى في الأديان ، سألتني إن كنت قد أدركت أن هذا الأمر كان استفزازيًا ، فقلت : نعم.

وبعد الزيارة وأنا مع أصدقاء مندائيين في نيويورك شاهدنا شريط فيديو لمدة ثلاث ساعات عن رحلتي هذه، وعن مشاهدة صوري وأنا أتحدث إلى الحشود في الأحواز ، فعلق صديق لي (وهو من أهل خوزستان) قائلاً: (الآن يعرفون أنفسهم لأنك جئت إلى هناك لإخبارهم بذلك) ، هذا الكلام ينم عن مسؤولية الباحث تجاه أناس محاصرين ومندهشين من أن أجنبيًا يعرف عنهم شيء.

ملاحظة: بغض النظر عن تقاعد الأستاذ كورت رودولف مؤخرًا في ماربرغ بألمانيا ، فإن الباحثة لا تعرف باحثين آخرين يدرسون المندائية حاليًا ، وهي تشجع الآخرين على القيام بدراسات مندائية.